العالم العربي الحديث والمعاصر تخلف فاستعمار فمقاومة (1)

عبد المجيد بلهادي

المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية

(جامعة منوبة)

أثث المؤرخ التونسي، علي المحجوبي، المكتبة التاريخية التونسية بمجموعة من المؤلفات ذات البعد الأكاديمي والتحليلي للواقع التونسي خاصة والعربي عامة. وفي هذا الإطار يندرج تقديم آخر مؤلفاته وهو كتاب : **العالم العربي الحديث والمعاصر تخلف فاستعمار فمقاومة**، الصادر سنة 2009، في 282 صفحة، أما التركيز على هذا المؤلف فيعود إلى أنه آخر ما أنتج الرجل، ثم لطبيعته التحليلية للواقع العربي على امتداد فترة تاريخية هامة بالنسبة للعرب وهي القرنين التاسع عشر والعشرين، وإن يتدرج مضمون الكتاب ليلامس المرحلة الراهنة بكل تعقيداتها.

I- نظرة شاملة للتاريخ العربي

انطلق المؤلف في كتابه من نظرة شاملة للتاريخ العربي، فقد غطى الكتاب الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية التي شهدتها المنطقة العربية طيلة القرنين التاسع عشر والعشرون، إذ تعرض إلى الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والتسرب المالي في المنطقة وكيف أدت هذه العوامل إلى السيطرة

---

1) المحجوبي (علي) : **العالم العربي الحديث والمعاصر تخلف فاستعمار فمقاومة**، دار محمد علي الحامي، تونس، الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2009

الغربية، الفرنسية، الأنقليزية، الايطالية، الاسبانية، الصهيونية، على المنطقة العربية، ثم تطرق إلى المقاومة التي واجه بها العرب المحتلين، وإن اقتصر على الأطوار الأولى منها في أغلب الأحيان، فكيف عرض التاريخ العربي؟ وما هي نقاط البحث التي وقع التركيز عليها ؟

خصص المؤلف **الباب الأول** لتناول مسألة **استعمار العالم العربي**، وقد قسمه إلى أربعة فصول وهي : **جذور استعمار العالم العربي، استعمار المغرب العربي، استعمار المشرق العربي، العالم العربي والعولمة.**

ركز المؤلف خلال الفصل الأول على الأسباب التي يرى أنها أدت إلى احتلال المنطقة وهي أسباب اقتصادية واجتماعية بدرجة أولى. ففي دراسته **لجذور استعمار العالم العربي**، يرى أن ما وقع يعود إلى التقدم الذي حققته البلدان الغربية سياسيا واقتصاديا، فخلال القرن التاسع عشر كان الأوروبيون ينعمون بحياة سياسية متقدمة، تقوم على الحريات وحقوق الإنسان وأنظمة حكم دستورية.

وقد انعكس ذلك على المستوى الاقتصادي إذ سمح بالإبداع العلمي والتقني وانطلاق الثورة الصناعية التي يعتبرها وسيلة للنهضة الشاملة (ص : 24-25)، وفي المقابل كان العرب في رأيه يعيشون عصرا مغايرا تماما، من مظاهره : "بينما سادت العقلانية في الغرب تقهقرت في الشرق ليحل محلها في العصر الحديث الفكر الغيبي والأحكام المسبقة والقضاء والقدر والإيمان بالأولياء الصالحين والضرائح والقبور..." (ص ،25).

أما على المستوى السياسي فقد سادت في البلاد العربية أنظمة الحكم المطلق، وأصبح السكان مجرد رعايا خاضعين لإرادة حكامهم (ص، 28). وهيمنت مظاهر التخلف الاقتصادي (الطابع التقليدي للزراعة، تبعية اقتصادية للغرب، ثقل الضرائب)، ورغم محاولات التحديث في بعض الدول مثل تونس ومصر فإن كل التجارب باءت بالفشل وازداد ارتباط العرب بالغرب. هكذا رسمت الفجوة بين الطرفين وشكلت مجمل هذه العوامل جذور احتلال المنطقة العربية.

واستعرض المؤلف في الفصل المتعلق **باستعمار المغرب العربي** جملة الأسباب التي أدّت بدول هذه المنطقة إلى الوقوع تحت الاحتلال، وهي ترتبط

في مجملها بالتفاوت الذي كان عليه الطرفان العربي والغربي، فاحتلال الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، يعود في رأيه إلى الأسباب الاقتصادية بالأساس، فهو يتحدث مثلا عن التسلل المالي الأوروبي في كل من تونس والمغرب الأقصى، وكذلك عــن نظام الامتيازات والمعــاهدات اللامتكافئــة والتسرب التجــاري (ص : 40–50) ، وينطبق نفس الوضع على الحالة الليبية ابتداء من عام 1911، إذ ارتبط احتلالها بشكل أو بآخر بالتوسع المالي والاقتصادي للشركات المالية الايطالية. ولم يختلف الوضع بالنسبة **لبلدان المشرق العربي،** إذ يتحدث المؤلف عن نفس الأسباب تقريبا **فاحتلال مصر،** ارتبط بالتسلل المالي الأوروبي ونظام الامتيازات والتسرب التجاري، واستفحال المديونية. (ص : 59).

واتسم الصراع بين القوى الأوروبية حول المشرق العربي مثال العراق بصبغة صراع المصالح الاقتصادية وتضاربها. فقد كانت مجموعة المشاريع والاستثمارات الألمانية في**العراق** مثل خط حديد برلين – بغداد وافتتاح خط منتظم للرحلات البحرية بين هامبورغ والبصرة سنة 1906 سببا في تحرك بريطانيا وفرنسا لمواجهة هذا التوسع. وكان الموقع الاستراتيجي للعراق واكتشاف النفط سببا آخر في تزايد حدة هذا الصراع حول المنطقة بين مختلف هذه الأطراف، وإن رجحت كفة الفرنسيين والأنقليز منذ 1916 الذين اتفقوا على اقتسام المشرق بمقتضى معاهدة سايكس – بيكو المبرمة بينهما .

وأفرد المؤلف **الاستعمار الصهيوني بفلسطين** حيزا هاما من الباب الأول، إذ عاد إلى دراسة جذور هذا الاستعمار، فرأى أن الأسباب الاقتصادية تقف بدورها وراء هذه الحركة وخاصة ما اعتبره إمبريالية، أي استفادة الحركة الصهيونية من الحركة التوسعية الاستعمارية الأوروبية في إقامة دولتهم : "ففي مثل هذه الظروف التي أصبح فيها استعمار البلدان "المتخلفة" شيئا دارجا بأوروبا قامت الفكرة الصهيونية على تحقيق هدفها وهو الاستيلاء تدريجيا على فلسطين. وقد وجدت دعما من كبار الرأسماليين اليهود كروتشيلد وغيره ممن هم في أمس الحاجة إلى أسواق لصناعتهم وخصوصا لاستثمار أموالهم .." (ص : 72). ورأى أيضا أن الحركة الصهيونية استفادت من عوامل أخرى كالدعم البريطاني منذ صدور وعد بلفور سنة 1917 ثم الدعم الأمريكي إثر نهاية الحرب العالمية الثانية.

أما الفصل الرابع فقد خصص لمسألة **العالم العربي والعولمة**، فرأى أن العولمة تمثل امتدادا للاستعمار على مستوى الأسس والوسائل والهياكل، وأن المنطقة العربية خضعت مع نهاية القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين إلى تأثيرات العولمة بدرجة تفوق أو تضاهي تأثيرات الفترة الاستعمارية للقرن التاسع عشر، ذلك أن كل منجزات العولمة التقنية والاقتصادية كانت تخدم بدرجة أو بأخرى القوى الغربية الامبريالية : "في المجال الاقتصادي ،مثلما أسفرت في القرن التاسع عشر، المعاهدات اللامتكافئة، بفعل خفض الضرائب الجمركية وإغراق الأسواق بالبضائع الصناعية الغربية، عن تدهور الصناعات المحلية بكل من تونس ومصر والمغرب الأقصى، فإن اتفاقات العولمة في إطار المنظمة العالمية للتجارة، بحكم حرية المبادلات التي تقوم عليها، تهدد اليوم النسيج الصناعي لهذه البلدان الثلاثة لعجز بضائعها عن منافسة المنتوجات الغربية.." (ص :91).

وتطرق المؤلف في **الباب الثاني** إلى **مقاومة الاحتلال في العالم العربي**، وقد انطلق في دراسة هذه المسألة من **المقاومة في المغرب العربي**، وإن اقتصر على الأطوار الأولى منها. ابتدأ **بالمقاومة في الجزائر** التي انطلقت سنة 1832، فعرف بأبرز رموزها، وأهم أطوارها ومن ذلك المرحلة التي تولى قيادتها الأمير عبد القادر وذلك إلى حدود 1847.

وانتقل في الفصل الموالي إلى **المقاومة في تونس**، فبين أن هذه المقاومة انطلقت منذ 26 أفريل 1881، وساهمت فيها مجموعات قبلية من الشمال والوسط والجنوب، وقد حظيت بنوع من التنسيق من خلال تولي بعض الزعامات لقيادتها مثل علي بن عمار، الحاج حسين بن مسعي، وخاصة علي بن خليفة النفاتي، لكن قوة الجيش الفرنسي دحرت المقاومين في اتجاه الجنوب ثم اللجوء إلى طرابلس وذلك إلى حدود 1884.

أما فصول **المقاومة المغربية**، فقد انطلقت منذ 1912 وتزايدت حدتها سنة 1921 بتولي عبد الكريم الخطابي قيادة المقاومة في الريف ضد الإسبان، وقد تمكن التحالف الفرنسي الإسباني من القضاء عليها سنة 1926. وانخرط **الليبيون** منذ 1911 في سياق مقاومة الاحتلال الايطالي، ومن أهم أطوارها تلك المرحلة التي قادها عمر المختار في الجهة الشرقية من ليبيا بين 1923-1931.

أما الفصل الثاني من مقاومة العرب للاحتلال التي قدمها المؤلف، فكانت **المقاومة في المشرق العربي**، وقد اشتملت على **المقاومة العراقية** للاحتلال الأنقليزي منذ 1914، ومن فصولها ثورة العشرين التي ساهمت فيها القرى والمدن والأرياف العراقية قبل القضاء عليها في نهاية السنة، وعلى غرارها يتحدث عن **المقاومة في سوريا** وخاصة سنة 1925، وإن انحصر مجالها في منطقة جبل الدروز (قادها سليمان الأطرش).

وأفرد **المقاومة الفلسطينية** للاحتلال الصهيوني حيزا هاما نظرا لطبيعة هذه القضية. فقد بين أن الفلسطينيين واجهوا في البداية الانتداب البريطاني ونواياه في تكريس الاستيطان الصهيوني، خاصة وأنه سهل هجرة اليهود إلى فلسطين، وقد انطلقت أبرز مراحل مواجهة هذا المشروع سنة 1935، إذ قام عزالدين القسَام بدعوة عمال حيفا وفلاحي القرى المجاورة إلى حمل السلاح في وجه البريطانيين والصهاينة، ثم تلتها الثورة الفلسطينية الكبرى بين 1936-1939. أما مقاومة الكيان الصهيوني فلم تبدأ بشكل فعلي إلا سنة 1953 مستفيدة من دعم الثورة الناصرية بمصر، وخضعت إلى نوع من التنظيم بداية من سنة 1957 بتأسيس حركة فتح (حركة التحرير الفلسطينية) وذراعها العسكري، قوات العاصفة (1965).

II- نظرة نقدية للتاريخ العربي

لم يقف المؤرخ والمؤلف علي المحجوبي عند مجرد سرد أحداث التاريخ العربي على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين، بل إنه اعتمد المنهج الخلدوني في كتابة التاريخ : "أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال ...إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق..." (2)

لقد أخضع المؤلف انطلاقا من هذا المنهج الفترة الاستعمارية التي مرت بها المنطقة العربية إلى دراسة معمقة عرض فيها الأسباب الحقيقية التي جعلت العرب يخضعون إلى هيمنة الغرب، ثم مر إلى الواقع الراهن أي وصولا إلى

---

2) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **المقدمة**، دار القلم ، بيروت، 1992، ص، 3- 4[3]

القرن الواحد والعشرين، فبين من خلال بعض الأمثلة أن المنطقة لا تزال تتعرض إلى هجمة استعمارية توسعية شبيهة بما وقع في المرحلة السابقة، والمثل العراقي خير دليل على ذلك. إذ أوضح الأسباب الحقيقة لاحتلال هذا البلد، وبرهن على إفلاس وبطلان كل الحجج التي قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية. إن ما حصل في العراق منذ 2003 في رأي المؤلف يتنزل في إطار الاستعمار الجديد، وقد اتخذ شكل الاستعمار المباشر، أما أسبابه الحقيقية فتتمثل في الرغبة في السيطرة على الثروة النفطية : " إثر انهيار الاتحاد السوفياتي أصبحت الولايات المتحدة تتصيد الفرص للقضاء على النظام العراقي... خصوصا وأن العراق علاوة على ثروته النفطية – ثالث أكبر مخزون نفطي في العالم – يكتسب استراتيجية بالغـــة..." (ص : 234)

ويأتي احتلال العراق بصفة عامة في رأي المؤلف في سياق سياسة استعمارية غربية، تعود جذورها إلى القرن التاسع عشر، وهي تهدف إلى القضاء على كل مظاهر ومحاولات التقدم والتنمية التي ينجزها العرب : "إذ تعتبر أن تحقيق التنمية في بلدان الشرق الأوسط من شأنه تغيير موازين القوى وبالتالي تهديد هيمنتها على هذه المنطقة ...وهذه السياسة ليست بالشيء الجديد بل إنها بمنزلة الامتداد لتدخل القوى الكبرى في منطقة الشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين. فقد تدخلت في أواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر بريطانيا العظمى وحلفاؤها في مصر لإحباط المشروع التنموي الذي بعثه محمد علي باشا وفقا للنمط الغربي ...كما تدخلت القوى الكبرى في النصف الثاني من القرن العشرين لإحباط مشروع تنموي مماثل بعثه جمال عبد الناصر...يقوم على سياسة تنموية وفقا للنمط الغربي ويدعو إلى وحدة البلدان العربية ...وقد استفحل تدخل القوى الكبرى في المشرق العربي في تسعينات القرن العشرين مع قيام العولمة، وذلك خلال حرب الخليج الثانية التي شنتها الولايات المتحدة وحلفاؤها علـــى العراق ..." (ص،97-98)

وانطلاقا من فكره النقدي، لم يقف المؤلف عند البحث عن دور العوامل الخارجية في تخلف واستعمار البلدان العربية، بل بين أيضا أن للعوامل الداخلية دور هام في ما حدث ويحدث للعرب : "فالتأكيد على العوامل الخارجية ...لا يعني طمس العوامل الداخلية لأن ذلك من شأنه تعتيم الصورة وتبرئة الأنظمة التي توالت على هذه البلدان والتي عجزت عن النهوض بمجتمعاتها..." (ص:245).

وتتمثل العوامل الداخلية في رأيه ،في مظاهر التخلف المختلفة، فعلى المستوى الاقتصادي فالناتج الداخلي الخام لـــــ22 دولة أقل من الناتج الداخلي لإسبانيا، والثروة في أغلبها مالية سائلة من السهل محاصرتها وتجميدها ومصادرتها، وهي تعود بالفائدة على الغرب أكثر من العرب باعتبار أنها مودعة في البنوك والمؤسسات المالية الغربية، والنشاط الاقتصادي يقوم على المضاربة والوساطة أكثر من الإنتاج (نمط ريعي)، ويعجز الاقتصاد عن تلبية الحاجات الأساسية وعن توفير مواطن الشغل والتصدي للبطالة التي ارتفعت في 2010 لتشمل 25 مليون عاطل عن العمل (ص : 24).

أما أسباب هذا التخلف، فهي عديدة ومن بينها سوء التصرف : "الذي يتمثل في سياسة التبذير والإسراف وتحويل جزء لا يستهان به من موارد الدولة بصفة مباشرة أو غير مباشرة لمصلحة الحكام وعائلاتهم وذلك على حساب التنمية والنهوض بالمجتمع." (ص، 248).

ويعود التخلف الذي يعاني منه العرب أيضا حسب المؤلف إلى ضعف الروح العلمية في اتخاذ القرارات المصيرية منطلقا من فكرة لجاك بيرك : "ليس هناك بلدان متخلفة في التنمية بل هناك بلدان متخلفة في التحليل". ويقدم لوحة تختزل تقريبا كل مواطن الضعف والقصور في الميدان العلمي والمعرفي لدى العرب وكأنهم يعيشون خارج التاريخ الراهن : "ضعف الإنتاج المعرفي 1,1 % من الإنتاج العالمي..." (ص : 249). ولم يقف دوره عند تحديد الأسباب، بل طرح بعض **الحلول** التي يراها قادرة على إخراج العرب من التخلف والخضوع للتهديد الخارجي المستمر، وهي العمل على **إرساء أنظمة ديمقراطية،** (ص : 259). أما على المستوى الاقتصادي فالحل يكمن في بعث **إتحاد عربي** على غرار الاتحاد الأوروبي. (ص : 99).

يكتسب الكتاب قيمة هامة فهو الأول من نوعه من بين المؤلفات التونسية التي تقوم بدراسة شاملة ومنهجية ونقدية للوضع العربي على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، ولئن حلل أسباب التخلف والاستعمار في المنطقة العربية على امتداد كامل هذه الفترة وأشار إلى العوامل الداخلية والخارجية وطرح الحلول الممكنة لتجاوز هذه الأوضاع ومن بينها فكرة الديمقراطية، وتشجيع النخبة التقدمية والحداثية على تولي مهمتها

التاريخية في النهوض بالعرب، فإن أحداث 2011 في المنطقة العربية والتي أدت إلى القضاء على بعض الأنظمة الاستبدادية، لم تمكن هذه القوى من الوصول إلى الحكم رغم مساهمتها الفعلية في القضاء عليها، فهل أن الدورة التي رسمها في كتابه ستنطلق من جديد : "عرف العالم العربي في العهد الحديث والمعاصر تطورا دوريا يكمن في تعاقب التخلف والاستعمار والمقاومة، وبقي طوال هذه الحقبة من تاريخه أي على امتداد زهاء الخمسة قرون يتخبط في هذه الحلقة المفرغة.. (ص : 225).